

## مصير الأراضي الزراعية في ظل الاحتلال الروماني:

أ/ الزراعة عند الرومان: في البداية من الجيد تسليط الضوء على حالة الملكية الزراعية لدى الرومان حتى نفهم ما قاموا به عند احتلالهم بلاد المغرب القديم، حيث عرف الرومان الملكية الفردية منذ أقدم عصورها المعروفة، على أن بعض الأراضي كانت تعد من الأملاك العامة التي تستولي عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها. غير أن الحروب غيرت صورة روما القروية، فكان كثير من المزارعين قد قتلوا في الحرب أو يرفضون العودة لأراضيهم بعدما أصابها التلف والإهمال، أو قصمت ظهورهم الديون الباهضة، مما جعلهم يبيعون هذه الأراضي بأثمان زهيدة للأشراف، ليضموا المزارع الصغيرة ويكونوا منها ضياعا واسعة كبيرة، وأهملوا زراعة الحبوب والخضر لزراعة الزيتون والكروم لما فيها من ربح وفير، وانهارت بذلك زراعة الحبوب بإيطاليا في وقت توسعت فيه عملية توزيع الغذاء مجانا على المواطنين العاطلين. مما أدى بالسلطة الرومانية للبحث عن أراضي جديدة لتفتحها وتوفر لها حاجاتها من الحبوب أساسا، وكان احتلالهم للمغرب القديم من أهم أهداف التوسعات الرومانية.

## ب/ أصناف الأراضي الزراعية في ظل الحكم الروماني:

عند الاحتلال الروماني أعلنت روما أن كل المناطق التي احتلتها ملكية عامة للشعب الروماني Ager Publicus مما سمح لها بمصادرة أراض كل من وقف في وجهها وقامت ببيعها للمواطنين الرومان بمزاد علني بروما، وتحول المغاربة من ملاك الأرض إلى مجرد عمال أجراء.

غير أن هذا الانتقال لم يكن بتلك السلاسة، حيث مثلت الأراضي الإفريقية الخصبة محل صراع بين الأرستقراطية السيناتوروية والحركة الشعبوية، فالأولى أرادت تحويلها إلى ضيعات خاصة بأعضاء مجلس الشيوخ، في حين رأت الثانية تحت قيادة كايوس غراكوس فيها فرصة لحل المشاكل الاجتماعية من خلال توزيعها على الطبقات الرومانية العامة، لكن الصراع انتهى في معظمه لصالح الطبقة الأرستقراطية التي حولت أراضي المغرب القديم لملكيتها وعينت لإدارتها موظفين سامين ومستوطنين رومان، مستخدمة اليد العاملة المحلية للعمل بها.

ومن هذه الأراضي كان ما صادره الرومان من أملاك يوبا الأول، الذي حارب يوليوس قيصر، يكون قد ورثها يوبا عن سلفه ماسينيوس، الخير كان قد سيطر على هذه الأراضي على حساب قرطاجة، والأخيرة نفسها كانت قد صادرتها من السكان المحليين في القرن الثالث ق.م.

وقد طبقت هذه السياسة بداية مع الاحتلال الروماني لنوميديا وتحويلها لولاية رومانية باسم إفريقية الجديدة Africa Nova ، وقد تبعهم في ذلك ملوك نوميديا الغربية وموريطانيا حيث صادروا المزارع وضموها لأملاكهم الخاصة، وبل وأصبحت ملكيتهم مطلقة لكامل الأراضي ضمن حدود ممالكهم، وكأنه النظام الفرعوني مجسد بشمال افريقيا، فكانت ملكيات الأشخاص والأسر ملكيات صورية لأنها حقيقة ملك للملك (حتى أنهم فرضوا ضريبة الملكية التي كانت مثل تأجير الدولة لهذه الأراضي).

أما بالنسبة للأراضي غير الصالحة للزراعة مثل الاستبسية والرعية، وأيضا في مناطق القبائل التي لا تعترف بالسلطة الملكية عليها، فبعد الاحتلال الروماني طبقت عليهم روما نظام جديد يقضي بأن يديرها موظف روماني، أي أنها لم تصدر للشعب الروماني، بل بقيت أراضي الأهالي يديرها حكام أو نواب أو ضباط سامون، وسمح للأهالي باستغلالها مقابل ضريبة عينية تسمى العقوبة المفروضة على المهزومين. وقد منح القانون الأهالي حق توريث هذه الأراضي على شرط أن يواصل أبناءهم نفس النشاط الزراعي بها، والأراضي الرعية ترك استغلالها للقبائل البدوية مقابل فرض ضريبة ثابتة على رؤوس الماشية يدفعها ملاكها.

**ج- نظام مسح الأراضي (الكنتره) :** حرصت السلطة الرومانية على تجسيد هذه العملية على الأراضي الإفريقية الخصبة منذ سقوط قرطاجة، حيث تعتبر أعمال الكنتره centuriation من الأعمال الخاصة بالتهيئة الزراعية، وهي عملية تقسيم الأرض بطريقة تشكل بواسطتها عددا معيناً من الوحدات الكنترية المتساوية باستعمال شبكة من الخطوط المستقيمة ، ويدل مصطلح كنتوريا على مساحة من مائة هيريديا Heredia وهي مساحة مربعة طول ضلعها 240 قدم روماني، حيث يتم وضع حدود عن طريق إنشاء تقاطعات ترسم على الأرض انطلاقاً من أصل المحورين الكاردو والديكومانوس، لتتفرع منها خطوط متوازية تشكل مربعات طول ضلعها 710 متر ومساحة كل واحدة حوالي 50 هكتار.

لكن لا يمكن القول أن جميع الأراضي قد تمت كنترتها، حيث يتم التخلي عن كنتره بعض الأراضي كونها غير قابلة للزراعة، كالغابات والمستنقعات والأراضي الصخرية والجبال وغيرها، لكن خصص لها سجلات تدون بها قائمة هذه الأراضي وتسييرها.

وقامت السلطة الرومانية في الغالب بتجنيد الجيش للقيام بأعمال الكنتره، مما يدل على أهداف غير اقتصادية لهذه العملية، فتأتي الأهداف السياسية في مقدمة أهداف الكنتره، فكان هدفها سياسي ومالي ضريبي، وكذا لإحصاء الأراضي والقبائل ومراقبتها، وكذا تثبيت هذه القبائل

بتحديد مجالها وملكياتها، وكذا محاولة القضاء على نمط الحياة الاجتماعي والاقتصادي القائم على الرعي والترحال.

**قوانين الملكية الرومانية:** كان أكبر قسم في قانون الدولة الرومانية هو الخاص بالملكية والالتزامات، وعموما كانت الملكية للشئ بالنسبة لهم تأتي إما عن طريق الوراثة أو وضع اليد.

واعتبر القانون الروماني الأرض المحتلة Ager Publicus لتصبح كل الأراضي بالمغرب القديم سواء الزراعية أو الرعوية أو الغابات ملكا تحت تصرف السلطة والشعب الروماني، وقد طبق هذا المفهوم منذ بداية الاحتلال عام 146 ق.م عقب سقوط قرطاجة، ومثلما أوردنا لم توزع الأراضي حقيقة على الشعب الروماني، بل اغتصبتها الطبقة الأرستقراطية من مجلس الشيوخ لتحويلها للملكيات خاصة.

وقد طبقت روما على الأراضي الأفريقية التي احتلتها عدة قوانين مثل قانون 123 ق.م ويدعى L'ex pubria ، وقانون 111 ق.م المسى L'ex Thorius ، غير أن قانون L'ex Manciana كان أهمها وأشهرها، والذي أصدره يوليوس قيصر بعد احتلال نوميديا عام 46 ق.م ، حيث وزعت وفقه الأرض بالشكل التالي:

1/- وزعت أهم الأراضي على المواطنين الروماني ومن أهم المستفيدين هو الإمبراطور والطبقة الأرستقراطية وبعض الأهالي الذين تعاونوا مع الرومان، وهي أراضي معفية من الضرائب.

2/- أراضي منحت لمواطنين رومان لكنها تخضع لنظام الضرائب.

3/- أراضي السكان المحليين من الرجال الأحرار الذين يتعاقدون مع الدول لمدة غير محدودة، حيث يستغلون الأرض مقابل تقديم جزء من المحصول للرومان يختلف حسب محاصيلهم، ولهم الحق في توريثها ما داموا يحافظون على النشاط الزراعي بها.

وتغيرت الأوضاع تدريجيا مع اتساع رقعة الاحتلال الروماني، وتغير نظام الحكم في روما، لتصبح الأراضي على هذا الشكل:

- الأراضي الإمبراطورية : وهي مستقلة ومعفاة من الضرائب ويستفيد الإمبراطور فقط من عائداتها

- أراضي العائلات الأرستقراطية : وهي أيضا مستقلة عن المدن المجاورة لها ومعفاة من الضرائب

- أراضي البلديات : وهي ملك للأرستقراطية البلدية من الرومان والمترومنين

- أراضي القبائل الأهلية : وهي غير معترف بملكيتها في القانون الروماني ولذلك يتم حجزها ومصادرتها متى رأت السلطة الرومانية حاجتها إليها.

### المناطق الزراعية في المغرب الروماني :

1/ في نوميديا الشرقية : نجد السهول الكبرى التي يمر عبرها نهر مجردة في الجنوب الغربي، فيشير سالوستيوس أن القائد الروماني ميتيلوس عندما خرج بحملته من افريقية نحو نوميديا الشرقية (في حربه ضد يوغرطة) عبر هذه السهول ليجد نفسه محاطا بالمزارعين من كل ناحية، كما حصل على حاجاته من الحبوب بمنطقة Sicca التي تعرف اليوم بالكاف، وبهذا كانت الأراضي الزراعية مهيمنة على معظم وسط وغرب تونس إلى غاية مدينة سيرتا التي كانت محاطة بالحقول وحدائق الأشجار.

2/ في نوميديا الغربية : في حوالي سنة 117 ق.م قسمت مملكة ميكيديسا على أدهربعل ويوغرطة، فأخذ الأول المنطقة الشرقية من حدود افريقية إلى غاية نواحي سيرتا حيث كان مقيما، في حين تمتد مملكة يوغرطة من سيرتا إلى غاية موريطانيا (وادي ملوية).

وهنا يقول سالوستيوس أن أدهربعل قد حصل النصف الذي به أغلب الموانئ والمراكز العمرانية، في حين حصل يوغرطة على النصف الأكثر ثراء بالأراضي الزراعية والسكان. ويشير سترابون أنه في بلاد الماصيصيل كانت الأراضي أوسع والماء أكثر وفرة، أما بلاد الماصييل فكانت أراضيها أكثر خصوبة رغم ضيقها، وأفضل استغلالا.

لكن عموما أهم المزارع التي كانت بنوميديا الغربية هي خاصة في نواحي سطيف وبلعباس، الغنية بمزارع الحبوب، ورغم أن التطور والتعمير كان في نوميديا الشرقية (بالسهول الكبرى والكاف وسيرتا) إلا أن الغربية تميزت بتطور ملحوظ.

3/ في موريطانيا : كانت الأراضي أكثر خصوبة بمنطقة الريف، لكن الزراعة أقل ازدهارا، وواصل السكان المحليون حياة البدو الرحل، عدا ببعض السهول الساحلية على المتوسط والأطلسي، وعموما تطور الزراعة غربا كان متأخرا من الشرق، ونظرا لذلك فعند احتلال الرومان

للموريطانيان لم يطبقا عليها نفس النظام المتبع في افريقية ونوميديا الشرقية، حيث كانت الملكيات تمنح للأمرء المحليين يقومون باستصلاح الأراضي وإدارة الملكيات فلم يكن الاعتماد على موظفين رومان من أجل ذلك.